الفلسفة المعاصرة وأسئلة الأزمة

العربي ميلود
جامعة مستغانم

ولدت الفلسفة الغربية المعاصرة في داخل سياق مأزوم، وهو سياق أقل ما يمكن أن ينعت به أنه سياق تراجيدي مأساوي شكل أهم ملامحه مفاهيم تراجيدية لم يحملها القاموس الفلسفي منذ طاليس، مفاهيم "كالضياع، الدمار، الكارثة، الإرهاب، العنف.. ".

قاموس مفاهيمي جديد بدأ يتشكل في الفترة المعاصرة سببه الأساسي اضمحلال مشروع التنوير الأوربي بسبب الحربين العالميتين الأولى والثانية. والتي غيرتا كثيرا في شكل أوربا. وأدخلت التساؤل والشك والريبة في الدور التاريخي للفلسفة. فباتت الفلسفة المعاصرة تعايش أزمة قيم ووعي ومنهج.

أزمة قيم مثلتها عودة فكرة الإيديولوجيات الدينية والقومية والتي راحت تطرح نفسها كبدائل للفلسفة على المستوى الفكري التصوري. وتحولت الفلسفة في حد ذاتها إلى شكل من أشكال الإيديولوجيا كما يرى ماركس في الإيديولوجية الألمانية "" وهي بالطبع ككل إيديولوجية وهم لا يتجسد في أجهزة اجتماعية معينة، ولا يتمتع بأي استقلال ذاتي، ولا يقوم بأي دور"[1].

أزمة وعي مثلتها أزمة الذات، فباتت تعرّف الذات بأنها مجموع الأفعال الغير مدركة والغير واعية، وهذا ما غيّر جذريا في طريقة تفكير الإنسان المعاصر فأصبح أكثر فردانية يسعى لأن يحقق وجوده الأفضل، وهذا ما يؤكده ادموند هوسرل في أزمة العلوم الأوربية حين يقول " لقد فقدت أوربا معنى لوجودها، لكن بالرغم من ذلك ستعود إلى ما كانت عليه، لأنها تملك تقاليد روحية خالصة، كرست منذ الإغريق، هذا من جهة ومن جهة أخرى جعلت من العقل بطلها الذي لا يهزم".

هذا الرؤية الهوسرلية نتلمس فيها الشوق والحنين للتجربة اليونانية أكثر منها مقاربة الواقع الإنساني والفكري المأزوم.

أزمة منهج يمثله انكفاء وتراجع الفكر الفلسفي أمام النزعات العلموية المعاصرة. ومحاولة إحلال العقل التقني محل العقل التساؤلي التأملي. وترافق هذا الحديث مع حديث النهايات: نهاية الميتافزيقا، نهاية التاريخ، نهاية المثقف، نهاية الإنسان(موت الإنسان).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أسئلة مأزومة عديدة تعبر عن أزمة فلسفية تفرضها التحولات العالمية الراهنة على جميع الصعد، لعل أهمها الفلسفة والقيم المعاصرة؟. الفلسفة والعلم؟

ولعل أهم هذه الأسئلة ما هو حال الفلسفة العقلانية اليوم في هذا العالم اللاعقلاني؟ وهل نحن بحق في عصر ما بعد الفلسفة؟.

الفلسفة في عصر التطور التقني :

يقول ميشال فوكو في تقديمه لكتاب نتشه، -الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي- "أن ثمة جروحا نرجسية ثلاثة في الثقافة الغربية: الجرح الذي سببه كوبرنيك، وذلك الذي سببه داروين حين اكتشف أن الإنسان مولود من القرد والجرح الذي سببه فرويد.. حين اكتشف أن الوعي يقوم على اللاوعي"[2] ، هذه الجروح الثلاث يضاف إليها تغير تركيبة المجتمعات المعاصرة مما انجر عنه تشكلا مغايرا لما بات يعرف بمجتمعات المعرفة. لكن تبقى لهذه المعرفة شكلها الخاص يبتعد في كثير من ملامحه عن ما شيده الدرس الفلسفي للإنسانية جمعاء. ويمكن أن نلخص خصوصية هذه المجتمعات المعاصرة كما يلي:

الإستثمار في المعرفة وإعداد العقول وصقلها من أفضل ما يمكن إعداده للمستقبل ويمثل نقل المعرفة وتطويعها واستخدامها وتوظيفها لتنمية الشعوب عنصرا أساسيا لتقدم الإنسانية ورقيها. فنجد الدول تتسابق وتتنافس لتبني استراتيجيات ومخططات أفضل لتنمية الموارد البشرية وتحقيق الأهداف النوعية والكمية لتنمية شعوبها وتحويلها إلى مجتمعات معرفة، ومع إقتحام الثورة المعلوماتية لمختلف المجالات الإقتصادية والثقافية والإجتماعية وغيرها، أصبحت سرعة الحصول على البيانات والمعلومات وتكوين المهارات العالية واكتساب المعرفة تشكل السمات المميزة لتلك المجتمعات، فالغاية هي تنمية القدرات الفردية للفرد بهدف تعزيز القدرة التنافسية ومواكبة التغيرات الحاصلة في مختلف المجالات لما أصبحت تتطلبه أنشطتها من طرق حديثة أساسها تكنولوجيا المعلومات وشبكات الإتصال.

ولربما كانت هذه هي ميزة العقد الأخير من القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين الذي شهد تقدما هائلا في مجال التكنولوجيا عامة وتكنولوجيا المعلومات والحاسبات والإتصالات خاصة، ومازال ينمو ويتسارع بخطى واسعة وسريعة أكثر من الوقت السابق، وأفرزها العصر العديد من آليات تصنيع المعرفة والمزيد من الوسائل التكنولوجية الحديثة التي جعلت العالم قرية كونية صغيرة. فبات ينعت عصرنا الراهن بعصر الثورة العلمية والمعلوماتية والتكنولوجية، عصر المعلومات والإنفجار المعرفي، عصر التلاحم العضوي بين الحاسبات والعقل البشري، فالحاسبات غزت كل مجالات النشاط الإنساني المعاصر في الإقتصاد والخدمات والاتصالات، حتى السياسة باتت تعتمد على قواعد المعلومات وبنوكها لمساعدة الساسة في اتخاذ القرارات السليمة، لهذا تم توجيه إهتمام بالغ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للنظم التربوية في مجتمع المعلومات المعاصر بإعداد الأفراد إعدادا جيدا يؤهلهم للاستخدام الجيد لتكنولوجيا المعلومات. فما هي مكانة الفلسفة في مثل هذه المجتمعات؟.

هذا العصر الجديد من خلال هذه الطفرة المعلوماتية والتقنية الهائلة يظهر على أنه يحمل في طياته رقي ونمو المجتمعات المعاصرة إلا أن ما نشهده من صراعات وحروب مدمرة وكارثة ودمار، شاهد على أنه يجب إعادة النظر في ميكانزمات توظيف التقنية والتكنولوجيا لآجل الحفاظ على المعاني الإنسانية للتعايش والنمو والإزدهار.

لذا سنحاول أن نترصد مختلف جوانب هذا التطور التكنولوجي على مستوى الذات الإنسانية والوعي والقيم الإنسانية، مع بدء اضمحلال مفهوم التواصل الإجتماعي ليتغير باتصال تقني محض أهم ميزاته أن انتقلت القدسية في عالم اليوم إلى الآلة. ولربما هذا ما دفع هربرت ماركيوز إلى القول بأنه "إذا كان أفلاطون أراد أن يجعل من الفلاسفة سادة فإن التكنوقراطيون يريدون أن يجعلوا من المهندسين مجلس إدارة مديري المجتمع". كما يصف ماركيوز المجتمع الصناعي بأنه مجتمع يضفي العقلانية على اللاعقلانية فيجد (الآلية التي تربط الفرد بمجتمعه قد تبدلت نفسها. فالناس يتعرفون اليوم على أنفسهم في بضائعهم ويجدون جوهر روحهم في سياراتهم وتلفزيوناتهم وأدوات طبخهم) حتى العلاقات الاجتماعية باتت ترضخ لأشكال تكنولوجية متعددة. وبحق بتنا نعيش اليوم في عصر ينعت بالما بعد : ما بعد القيم، ما بعد الأخلاق، ما بعد التاريخ.. وبالتالي فنحن :

في عصر ما بعد الإنسان :

لقد أدت الحرب العالمية الثانية إلى تطور كبير في العديد من الميادين العلمية خاصة ما تعلق بالتسلح والطب، فلقد كان الحلفاء في هذه الحرب في حاجة ماسة إلى آلية ذاتية لأجل التفوق على الألمان على المستوى التكنولوجي خصوصا.

لذا توجه البحث أساسا في تطوير القدرات التكنولوجية من خلال الأجهزة المستقلة عن الطبيعة الفيزيائية المكونة لها، وهو ما ساهم في ميلاد علوم تقنية محضة خاصة بالتحكم وتوجيه هذه الأجهزة، وأهم هذه العلوم المحدثة هو السيبرنيطيقا cybernétique. وهكذا وجّدت الآلات الحاسبة والإتصالات اللاسلكية كما ظهرت الدراسات الجديدة عن المخ وكيفية عمله (الإنتباه، الفعل ، رد الفعل) وبذلك وضعت أسس هذا العلم القائم أساسا على معالجة الإعلام والمعارف الجديدة الخاصة بنقل الخطابات من خلال شبكات الإتصال، وبتوقع أي وقائع طارئة ومواجهتها بما يتطلبه الأمر.

إن السيبرنيطيقا هي التي كانت وراء إختراع العديد من أجهزة الإتصال المعاصرة تكون مشابهة لجهاز الإنسان العصبي وتكون أكثر مردودية وراحة بالنسبة إليه وهي تعتمد أساسا في عملها على معالجة الإعلام وتوظيفه مثل آلات التلفزة والراديو والهاتف وغيرها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهي التي تنقل الإعلام من نقطة مكانية إلى نقطة مكانية أخرى. وبالتالي يظهر جليا على أن علم التحكم هو وثيق الصلة بالإعلام والاتصال. لكنه إتصال يحقق نوعا من التماثل بين الآلة والإنسان، إتصال تحكمي توجيهي طور الفيزياء فأوجد القنبلة النووية، وطور البيولوجيا وقادها إلى الإستنساخ والموت الرحيم.

وبهذا أصبحت التقنية إيديولوجية للتقنيين فالكثيرين يتعلقون بها كأنها حبل النجاة الأخير والخلاص الوحيد لتنمية مجتمعاتنا، ولكنها في نظر البعض الآخر مقبرة الإنسان.

ومع إعلان التقنية لموت الإنسان في أبعاده الروحية والقيمية فلا بد على الفلسفة أن تؤدي إلتزامها التاريخي وتتفاعل مع هذه الأزمات التي طالت كل المجالات النظرية والإجرائية وأن تقدِّم تصوراتها وحلولها لها معيدة ارث الأفلاطونية والعقد الإجتماعي، باعثة عجلة السلام الدائم التي نبأنها بها كانط لكن أصابها العطب الدائم. على الفلسفة أن تقيم علاقة عقلانية مع العلم وأن تسائله عن غائيته، فهل التطور التقني الذي نعايشه سيقود إلى رفاه الإنسان ورقيه أم هي سبب هلاكه ودماره. ففي هذا العصر الذري يعلن علماء الذرة الحاصلين على جائزة نوبل في اجتماعهم سنة 1955 بجزيرة مينو " أن العلم – والمقصود علم الطبيعة الحديث جدا- هو طريق يقود إلى حياة أكثر سعادة بالنسبة للإنسان" هذا النص الذي يورده هيدغر يعقبه بتساؤل مهم جدا : " كيف يمكن أن نتحكم ونذير هذه الطاقات الذرية التي تتجاوز في ضخامتها كل خيال بحيث تضمن للإنسانية أن لا تنفلت هذه الطاقات دفعة واحدة من أيدينا، - حتى وإن لن تكن هنالك حرب- ، فتجد منفذا وتدمر كل شيء"[3] ، ولربما هذا ما يعنيه فرويد في قوله أن "... ما يبدعه الانسان يسهل تدميره، والعلم والتقنية اللذان يشيد عليهما الإنسان إبداعه يمكن أن يستخدمها في تقويضه وتخريبه"[4].

ولعل هذا هو الدور الفعلي المنوط بالفلسفة المعاصرة لتفعيل دور الذات الإنسانية في تنمية مجتمعاتها. وإعادة بعث القيم الإجتماعية وتفعيل كوجيتو الفكر بدل كوجيتو الإستهلاك. إلا أن الفكر الفلسفي بدأ في الفترة المعاصرة بالانكفاء والتراجع تدريجياً أمام صعود العلوم والدين والأيديولوجيا التي راحت تطرح نفسها بدائل للفلسفة، لها من الفاعلية ما يّمكنها من التصدي لإشكالات الكون والمجتمع والمصير.

فبحق أن الفلسفة المعاصرة تعايش أزمة فعلية ناتجة عن تراجع فعاليتها وقيمتها داخل المجتمع، فبدلا من أن تنصرف الفلسفة إلى البحث في تعقيدات هذا العالم المأزوم لفهم تحولاته وتحديد مستقبل الإنسان، هذا العالم الذي لن يكون خلاصه إلا مع الفلسفة. نجدها تتساءل في الفلسفة بما هي فلسفة، فبتنا نعاود دوما البحث في تعريف الفلسفة، نمارس الحفر في الأصل الفلسفي، "وهو عمل لا يخرج عن السمة التي طبعت الفلسفة بعد هيجل حيث لم يعد لها موضوع، وحيث أصبحت تشتغل بنفسها وتعيد قراءة تاريخها بغية تجاوزه"[5].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فتحول سؤال ما هي الفلسفة إلى أولوية الأولويات في الطرح الفلسفي المعاصر، بل قد نذهب أبعد من ذلك حين نقول أن هذا السؤال صار هو محور البحث الفلسفي المعاصر. ففي عصر ما بعد الفلسفة النسقية، وفي عصر ما بعد الميتافزيقا، صار الهم المشترك لأغلب الفلاسفة المعاصرين هو في البحث عن المكان الفلسفي، أو بتعبير إجرائي عملاني هو التساؤل عن الدور الذي من الممكن أن تلعبه الفلسفة في ظل سيطرة التقنية وإحلالها محل العقل الذي ألّهته أغلب الفلسفات وبالأخص الفلسفة الأنوارية. مع اندماج كلي لمفاهيم فلسفية خالصة ضمن أطر علوم تقنية محضة كعلم السبرنيطيقا. – كما سبق وأن ذكرنا- .

وأمام هذا الوضع المتأزم للفلسفة المعاصرة يجب البحث والتأسيس في الآن ذاته، ليس لتعريف الفلسفة بل في الدور الذي من الممكن أن تمارسه الفلسفة في عالم اليوم، فمعيار القيمة التاريخية لفلسفة معينة يتجسد في مدى فاعليتها النظرية والإجرائية، وإذ كان صحيحا ما يقال بأن كل فلسفة تعبر عن المجتمع الذي أنتجها، فلا بد لها من أن تفّعل بدورها في هذا المجتمع مولدة تغيرا ما، ومدى فاعلية هذه الفلسفة في مجتمعها هو معيار قيمتها التاريخية، والبرهان على أنها ليست مجرد جهد فردي وإنما هي تجربة إنسانية لفهم الوجود وتغييره، ونتذكر جهود "انطونيو غرامشي" (Antonio Gramsci) لتحديد الأهمية التاريخية للفلسفة التي تملك فعلاً قيمة تاريخية.

وتأتي هذه الدعوة في ضرورة إعادة البحث في دور الفلسفة المعاصرة داخل المجتمعات الراهنة بعد أن تعاقبت وتراكمت إعلانات نهاية الفلسفة بشكل ملحوظ جدا، مع الماركسية حينما خاطب ماركس الفلاسفة بأن عليهم أن يغيروا العالم لا أن يفسروه " فالفلسفة بما هي إيديولوجيا لا تملك تاريخا، ولا تتمتع بأي استقلال ذاتي، فهي إذن لا تملك وظيفة، إنها لا تساهم في تغيير العالم، وإنما في تغيير تفسير العالم"[6] ، ومع التصورات الوضعية لأوغست كونت حين إعتبر أن العلم ولّد مؤخرا نتيجة إقتصار الفكر الإنساني على البحث في الماهيات والمجردات وأن إعلان نهاية الميتافزيقا هي الميلاد الفعلي للعلم ، أي يمكننا أن نقرأ هذا التصور بأن الفلسفة ليست علم.

وقد لا نستغرب هذه الرؤية إذا ما تأملنا بعض النصوص الفلسفية التي ترى في العقل الفلسفي المعاصر قاصرا عن إدراك حقيقة الأشياء الفعلية، فلنتأمل جيدا في هذا النص لبرغسون في كتابه المادة والذاكرة إذ يقول : " تساءلت مرارا ماذا كان حدث لو أن العلم الحديث بدلا من أن ينطلق من الرياضيات لكي يسير في اتجاه الميكانيك وعلم الفلك وعلم الطبيعيات وعلم الكيمياء، وبدلا من أن يصب جميع جهوده على درس المادة بدأ يأخذ الروح بعين الإعتبار، أي لو أن كبلر وغاليليه ونيوتن كانوا مثلا علماء سيكولوجيا، لا شك أننا كنا حصلنا أنذاك على سيكولوجيا لا يمكننا اليوم أن نكون فكرة عنها".

فكيف سنقرأ هذا النص الفلسفي، أليس هذا اعتراف صريح بقصور المنهج الفلسفي عن فهم حقيقة الروح، وإنما يجب علينا أن نستنجد بالمناهج العلمية لتنوب عن المنهج الفلسفي وتحقق ما لم يمكنه تحقيقه. أم علينا أن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نزاوج بين المنهجين لتحديد الطبيعة الفعلية للأشياء كما يقول برغسون نفسه لاحقا في التطور المبدع أنه : " لو إجتمعتا نظرية المعرفة ونظرية الحياة، وابتغتا طريقا أقرب إلى التجربة ففي وسعهما أن تجدا حلا لأكبر المشكلات التي تثيرها الفلسفة..ولاستطاعتا أن تبينا لنا كيف نشأ العقل، ومن ثمة كيف تكونت المادة"[7].

ربما هذا ما سميناه سابقا بأزمة المنهج، وتعود هذه الأزمة التي باتت تعايشها الفلسفة على مستوى المنهج، عقب إنفصال علم النفس وعلم الإجتماع بالأخص عنها، وإلى تلك النظرة السلبية التي باتت توسم بها الفلسفة عقب شيوع الفلسفة الوضعية وسيطرة مفاهيمها.

دفاعا عن الفلسفة :

وعقب هذه الإرتحالة في أسئلة الأزمة التي تواجهها الفلسفة نجد أنه لا سبيل للمجتمعات المعاصرة من العودة دوما إلى الفلسفة اليونانية كما يؤكد على ذلك هيدغر، إذ يرى أن العلوم والتكنولوجيات كلما واجهت تناقضات داخلية وكلما تعارضت مع الهدف الإنساني الذي كان مخططا لها، كلما ظهرت الحاجة إلى تفسير صباحي (Explication aurorale) ظلت الفلسفة اليونانية تعطيه دوما منذ بدايتها وإلى اليوم.

فحتى سؤال ما هي الفلسفة ليس سؤالا محرجا، لأن التساؤل عن معنى الفلسفة وكنهها، إنما هو الذي يكون الفلسفة أكثر مما يحددها الجواب عن هذا التساؤل، فكون التساؤل ما زال يتولد باستمرار لغياب إجابات مطلقة له، فهذا يشكل حجة للتواضع لا سببا للمهانة للفلسفة.

فالفلسفة الفعلية – كما يقول هوسرل في كتابه الأزمة أنها ".. هي التي تأخذ نصب عينيها وبين أيديها المشكلات الحقيقية وتطرح الأسئلة والقضايا الجوهرية والمصيرية التي تمس الإنسان وحياته"[8].

وإذا أجبرنا الفلسفة أن تدافع عن نفسها وتحتج على دعاوى إقصائها، كما أراد لها نتشه ذلك فباستطاعتها أن تقول " أيها الشعب التعيس ! أهو خطأي إذا كنت مكرهة على التجول في بلادك كعرافة مغامرة، وعلى التستر والتقنع كما لو كنت المتهمة وأنتم قضاتي؟ أنظروا فقط حالة أخي الفن ! إن حالته كحالتي، فنحن تائهان وسط برابرة، ولم نعد نعرف كيف نؤمن خلاصنا، صحيح أننا لا نملك هنا مبررا، ولكن القضاة الذين سيحكمون علينا لسوف يدينونكم أيضا ويقولون لكم: لتكن لكم بادئ ذي بدء حضارة، ولسوف تدركون فيما بعد ماذا تريد وماذا تستطيع الفلسفة أن تفعل"[9].

وفي آخر هذه المداخلة لا بد من العودة إلى الفلسفة اليونانية باحثين عن ذاك التفسير الصباحي الذي وجهنا إليه هيدغر، وسنجده هذه المرة مع هراقليطس في جدل الحب والحرب ليعرفنا بالدور الفعلي للفلسفة، حينما يقول: " الوظيفة الأولى للفلسفة البحث عن الأرض المشتركة بين النفوس المستيقظة، البحث عن أرض الحب الموحّدة والمجمّعة،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والتخلص من الكراهية التي هي البحث عن الأرض المتفردة بين النفوس النائمة. إن الأرض المشتركة هي أرض العقل، لأن العقل واحد عند الجميع. أما الأرض المتفردة فهي أرض اللاعقل"[10].

الإحالات الهوامش :

1 - عبد السلام ابن عبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، مجاوزة الميتافيزيقا، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1991، ص 15.

2 - فريديريك نتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تقديم ميشال فوكو، تعريب سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر لبنان، ط3، 2005، ص 08.

3- هيدغر، السكينة، نقلا عن : دفاتر فلسفية، الحداثة وانتقاداتها، إعداد وترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب. 2007. ص ص 72.71.

4- سيجموند فرويد، مستقبل وهم، ت جورج طرابيشي، ط 3، دار الطليعة للطباة والنشر، بيروت، ص 09.

5- عبد السلام ابن عبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، مجاوزة الميتافيزيقا، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1991، ص 82.

6- عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص 14.

7- هنري برغسون، التطور المبدع، ترجمة جميل صليبا، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع بيروت 1981، ص 05.

8- Husserl, la crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale, trad Girard Granel, GALLIMARD, 1976, p04.

9- فريديرك نتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، مصدر سابق، ص 46.

10- هيراقليطس، جدل الحب والحرب، ترجمة وتقديم مجاهد عبد المنعم، دار التنوير للطباعة والنشر بيروت، ط2، 2006، ص ص 15.16.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com